فنون الأدب الهامشي وأنواعه:

الرواية – الرواية البيكارسكية أنموذجا –

تمهيد:

تعتبر نصوص البيكارسك بمثابة قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع. وهي غالبا ما تكتب بصياغة سيرية أوطوبيوغرافية روائية واقعية. وتتخذ هذه الرواية صيغة هجائية وانتقادية لأعراف المجتمع وقيمه الزائفة المنحطة فاضحة إياها بطريقة تهكمية ساخرة، منددة بالاستبداد والظلم والفقر.

- أولا: الدلالات اللغوية والاصطلاحية:

لم تظهر لفظة بيكاريسكا (Picaresca) باعتبارها لفظة إسبانية إلا في نهاية الربع الأول من القرن السادس عشر، قبيل ظهور الرواية الشطارية الأولى في الأدب الإسباني للروائي المجهول ألا وهي: (حياة لاثاريو دي طورميس وحظوظه ومحنه).

- ثانيا: نشأة الرواية البيكارسكية:

تدل هذه اللفظة على جنس أدبي جديد تشكل في إسبانيا لأول مرة. ثم انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وألمانيا وانجلترا وأمريكا. وتعني هذه الرواية ذلك المتن السردي الذي يرصد حياة البيكارو أو الشطاري المهمش؛ لذلك تنسب هذه الرواية إلى بطلها بيكارو (الشاطر) أو (المغامر) الذي يقول عنه قاموس الأكاديمية الإسبانية: "نموذج شخصية خالعة وحذرة وشيطانية وهزلية، تحيا حياة غير هنيئة كما تبدو في عيون المؤلفات الأدبية الإسبانية"، أو أنه: "بطل مغامر شطاري مهمش صعلوك محتال ومتسول". وتعتقد الأكاديمية الإسبانية أن لفظة (Picaro) مشتقة من فعل (Picar) في معناه الشعبي المجازي، وهو الارتحال والصيد واللسع.

- ثالثا: بطل الرواية البيكارسكية:

البيكارو باعتباره بطل الرواية البيكارسكية ليس بمقترف جرائم في معنى الجرائم الحقيقي، ولكنه ينتمي إلى طائفة المتسولين، لا يبالي كثيرا بالقيم ومسائل الأخلاق ما دام الواقع الذي يعيش فيه منحطا وزائفا في قيمه، يسوده النفاق والظلم والاستبداد والاحتيال حتى من قبل الشرفاء والقساوسة والنبلاء ومدعي الإيمان والكرم والثراء. وما همّ البيكارو سوى البحث عن لقمة الخبز ورزق العيش، لذلك فهو في حياته مزدوج الشخصية، جاد في أقواله ونصائحه ومعتقداته، وذكي يتكلم بالنصائح، ويتفوه بإيمان العقيدة، ولكنه في نفس الوقت، يسخر من قيم المجتمع وعاداته وأعرافه المبنية على النفاق والهراء. ويأنف البيكارو من اتخاذ عمل منتظم لرزقه، بل يتسكع في الشوارع ويتصعلك بطريقة بوهيمية وجودية وعبثية.

- رابعا: الرواية البيكارسكية والهامش:

تعتبر نصوص البيكارسك بمثابة قصص العادات والتقاليد للطبقات الدنيا في المجتمع، أي إنها قصص مغامرات الشطار ومحنهم ومخاطراتهم. لذا غالبا ما تكتب بصياغة سيرية أوطوبيوغرافية (Autobiographie) روائية واقعية، سواء بضمير المتكلم أم بضمير الغائب؛ لذا تسمى أيضا بالرواية الأوطوبيوغرافية البيكارسكية التي تؤكد مدى اعتماد الرواية على تصوير البعد الذاتي

وتجسيد تقاطعه مع البعد الموضوعي. وتتخذ هذه الرواية صيغة هجائية وانتقادية لأعراف المجتمع وقيمه الزائفة المنحطة، فاضحة إياها بطريقة تهكمية ساخرة، منددة بالاستبداد والظلم والفقر.

- خامسا: مميزات الرواية البيكارسكية:

ومن خصائص ومرتكزات الشكل الروائي البيكارسكي وتيماته الأساسية:

1– الرحلة بمغامراتها ومفاجآتها العديدة.

2– صعلكة البطل وعطالته وتمرده على الواقع الرسمي والمؤسساتي.

3– مواجهة البطل لمجموعة من المحن والمكائد.

4– الطابع الأوطوبيوغرافي (السيرة الذاتية أو الأوطوبيوغرافية).

5– المعاناة من التهميش والفقر والظلم والانطواء على النفس.

6– التهجين الأسلوبي وشعبية الملفوظ والتقاط اليومي المبتذل.

7– الأسلبة والباروديا والسخرية والضحك الماجن والمفارقة.

8– الواقعية الانتقادية في هجاء الواقع والناس وتحدي أعراف الواقع ومواجهة قيمه المبتذلة.

9– الصراع بين القيم الأصيلة والقيم المنحطة.

- سادسا: التخيل البيكارسكي في الادب العربي الحديث:

في أدبنا العربي الحديث كثير من النصوص الروائية الشطارية، وإن كان أغلبها في المغرب الأقصى؛ وربما يعود ذلك لتأثر كتابها المباشر بالأدب الإسباني. وقد كتبت هذه النصوص من قبل **محمد شكري** و**محمد الهرادي** و**العربي باطما** و**بنسالم حميش** و**محمد زفزاف**...

ويعتبر **محمد شكري** حسب – علي الراعي – رائد الأدب الشطاري أو الرواية الواقعية الاحتيالية في أدبنا العربي الحديث، وذلك بروايته "الخبز الحافي" التي يقول عنها: "وفي أدبنا العربي الحديث ظهرت في السنوات الأخيرة سيرة ذاتية روائية بعنوان الخبز الحافي للكاتب المغربي محمد شكري. وهي تحكي المغامرات الاحتيالية واللصوصية والجنسية لشاب أمي في أدنى مراتب الفقر، ينتقل بين طنجة ومدن المغرب، بحثا عن لقمه الخبز الحاف. والسيرة تعود بالكتابة الروائية عندنا إلى النقطة التي كان ينبغي أن تبدأ منها الرواية العربية، مستندة إلى المقامات مطورة إياها إلى فن روائي عربي الأساس".

المراجع:

- جميل حمداوي: مجلة حوليات التراث، العدد 08، سبتمبر 2008.
- علي الراعي: شخصية المحتال، العدد 412، أفريل 1985، ص 9-8.